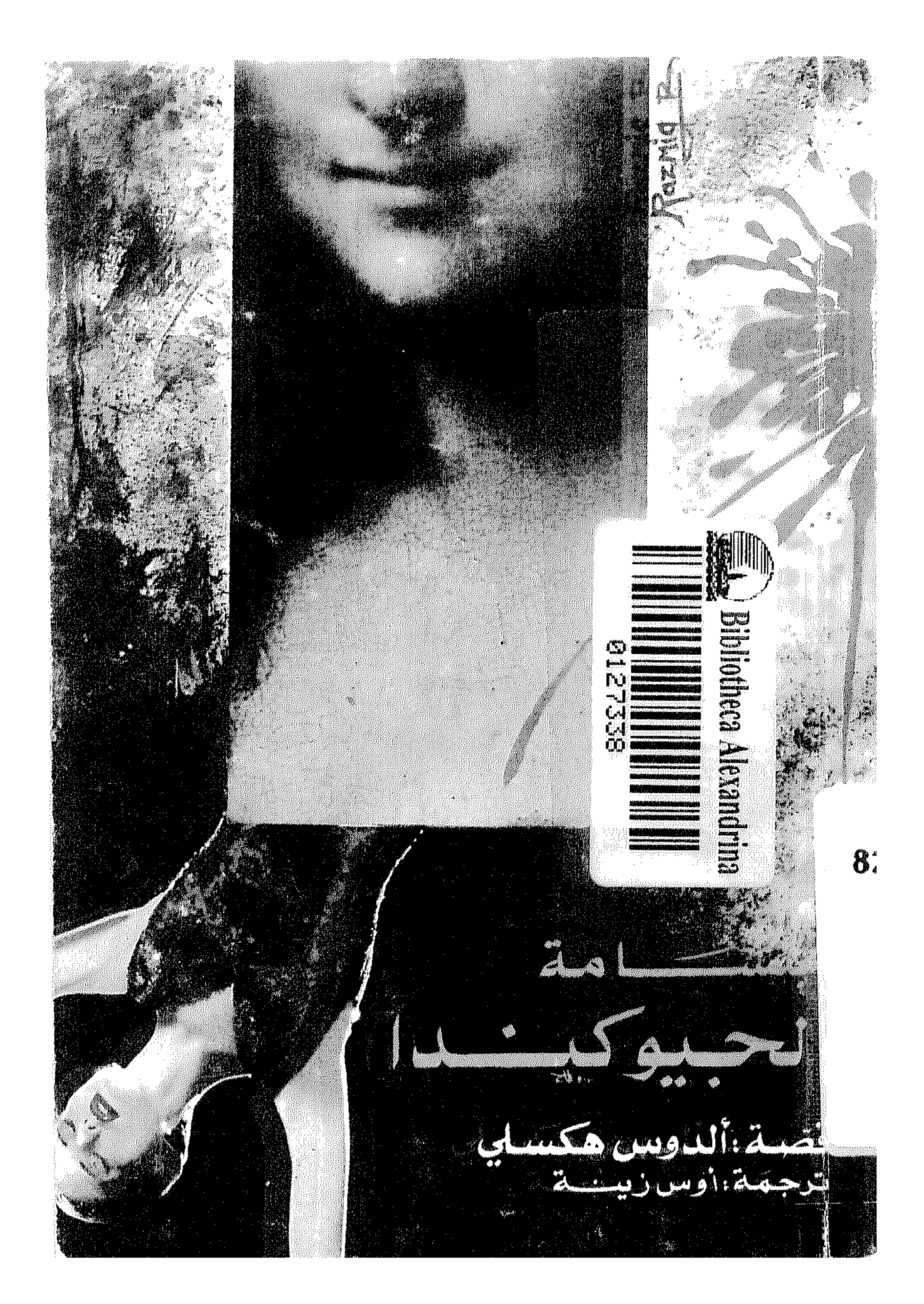

سامة
لجيوكندا
صة: ألدوس هكسلي
ترجمة: أوس زينة
Bibliotheca Alexandrina
0127338

تأليف: ألدوس هكسلي

ابتسامة الجيوكندا

ترجمة: أوس زينة

الطبعة الأولى ـ ١٩٩٤
/٣٠٠٠/ نسخة

تصميم الغلاف:
رازميك برتزيان
خطوط الغلاف والإهداء
بديع بطاح

التنفيذ الطباعي: دار المستقبل ـ دمشق ـ صالحية
هاتف: ٢٢٢٧٩٠٥ ـ ص.ب ٦٤٧٤

الإهداء

إلى : "من ناجيت أحلامي فتأصل الحلم

ضياءً لامعاً"..

إلى : من كان لها دور كبير في إنجاز هذا العمل .

أوس

ألدوس هكسلي (١٨٩٤ - ١٩٦٣)

حظيت كتابات ألدوس هكسلي المتعددة الجوانب باهتمام الكثير من القراء. وقد برع في كتابة القصة القصيرة فوق كل ذلك، وتشهد على ذلك قصصه التي تتمتع بحيوية فريدة. إلاّ أن سمعته تدهورت في السنوات التي تبعت وفاته لأنه وعلى الأغلب كان قد انتقل بحرفته الأدبية خلال حياته من شاب متقد الذكاء ينتقل ضمن غموض أنيق إلى رجل اجتماعي ذي تأثير نفساني وإرهاف للحس وإحداث تخيلات بالغبطة والقوة ليصبح فيما بعد ذا نزعة صحفية. ولكم كان هذا غريباً عند رجل يملك ثقافة عالية ومحسوبية على فئة قليلة تفهمه ـ لقد كان هكسلي محفوفاً بالتناقضات فقد منعه إخفاقه في حلها من التطور ابتداءً من التألق إلى حالة من الجدية لكاتب أرفع شأناً. وهو بالتأكيد ليس كما قيل عنه أو كما حظي بالثناء مثل "كومبتن بيرنيت".

إن محاكاة هكسلي البارعة لـ "فيربانك" قد أثارت عنده مع حبه للجمال، عند النزعات الزهدية الآثمة، حب التنظير لمبدأ من

يقولون إن اللذة أو السعادة هي الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة، إضافة إلى كونه ناسكاً ضعيفاً. ويعتقد أن هكسلي قد تغير بشكل متطرف كونه قد بدأ ككاتب ممتع وانتهى ككاتب متصوف، وهذه ليست المسألة، فقد أشار "د.س. سافاج"، وهو أحد أكثر النقاد العصريين دهاء، إلى الاتجاه الأولي لمذهب المتعة عند البيروويين "Pyrrhonic Hedonism" والاتجاه المتأخر الصوفي ـ أساساً يعادل هذا رفضاً للأنا وأعمالها، متضمناً هذا الرفض: "الزمن" من أجل التوحد مع المطلق ـ الذي ينشأ في نفي عام للكينونة. إن هكسلي الذي كتب تلك الكوميديات الحياتية المتألقة مثل:

(١٩٢١) - *Crome Yellow*

(١٩٢٣) - *Antic Hay*

(١٩٢٥) - *Those Baren leaves*

قد شعر بنفسه أنه بعيد عن تلك الحياة البدائية البسيطة مثلما كان بعيداً عنها عندما أصبح متصوفاً فيما بعد. فهو في بداياته لم يكن يشفق على شخصياته، كان يسخر من قرف جسدية الانسان لديهم، بعد ذلك تخلى عن السخرية وتعلم الحنو والشفقة (رغم أنه غير قادر أبداً على تحقيق عنصر الدفء في رواياته) ـ لكنه بقي يرفض الجسدية. إن رواياته الثلاث الأولى تستحق بجدارة أن تكون خلفاً لمسرحيات "بن جونسون" الهزلية. فرواية "Those Baren Leaves" الأكثر جدلية بين رواياته هي أكثر جدلية ذلك أن شخصياته التي يجب أن تكون لها حيويتها المستقلة، قد أصبحت

في الغالب أدوات نقل مباشر لأفكار هكسلي الشخصية عن العبثية. إن رواية "Point Counter Point" التي كتبها عام ١٩٢٨ هي قصة مقنعة تدين بشكل كبير لرواية "The Coiners" لـ"جيد" وهي تعتبر من أفضل أعمال هكسلي وأكثرها واقعية، على الرغم من أننا نلاحظ أن أكثر أحداثها إثارة تدور حول إحدى رباعيات "بيتهوفن".

يفتقر هكسلي إلى الدفء كروائي، لكنه يمتلك الرقة والاحتشام، ورواية "Point counter point" تنجح إلى حد ما في إظهار التعاطف تجاه أولئك الأناس الذين يطمحون لكنهم بكل بساطة يعيشون ويعانون. يقارن هكسلي نفسه بشخصية الروائي "فيليب كوارليز" ويجد في نفسه نقصاً: "كان يمضي كل حياته في فراغ غامض. لم يسمح لأي شخص... بالدخول إليه". وهو يضع نفسه بمواجهة "مارك رامبيون" الذي يؤمن بالمذهب الحيوي، وفي الكتاب يتهجم كثيراً على رامبيون. ويختتم كواليز قوله باعتقاده أنه: "يجب أن يتواضع العقل ويعترف بحقوق القلب وبحقوق الأعضاء الجنسية...." إلاّ أن كل هذا ليس سوى تزييفاً لحقيقة الأمر. ويطلق "سافاج" على الرواية أحكاماً مثل "سخيفة"، "مكتوبة بشكل مزيف"، "صبيانية المفهوم والتقديم". ويمكن إضافة شيء لهذا الحكم، أو حتى لهذه التهمة، بأن هكسلي يكشف هنا أكثر من أي مكان آخر عن "الصبيانية المحتمة التي ...تفسد فهمه للحياة". إن هذا النقد بالغ القسوة برغم كل شيء. فهكسلي لا

يبدو صبيانياً كراوائي إلاّ عندما يقارن بلورنس في أفضل أعماله: إن رواية Point Counter Point تبدو أحياناً بعيدة كل البعد عن السخف. إن صدق القول وربما يصح أن نقول: إن جدية مشروع هكسلي واضحة في كل صفحة كتبها، ويدرك رامبيون هذا هنا تماماً مع بعض الشيء من الفهم، وعلى أية حالة فقد انهارت قوة هكسلي كروائي، فرواية "Eyeless In Gaza" التي كتبها عام ١٩٣٦ ورواية "After Many A Summer" عام ١٩٣٩ وكل ما تبعها هي روايات بارعة دون شك، إلاّ أنها كانت عبارة عن (Thesis - Fiction)[1] كتبت في غياب كامل للتأثير الإبداعي. إن رواية "Brave New World" هي عمل ذكي لكنها تعبر عن طوباوية نصف ساخرة إلى حد ما، وهي تدين بشكل أو بآخر لرائعة "زامياتن" "We" التي تظاهر هكسلي بأنه لم يقرأها. و برأي الآخرين إن عودة هكسلي للتصوف هي أفضل :"حتى لقارئ حسن النية ومهتم بالصوفية، وغير مجحف بحقها، لاتبدو أبداً انها أكثر من قالب واقعي". إن قالب القصة عند هكسلي يصور لنا نزعته نحو تحطيم الاعتقادات التقليد. ويظهر إحساسه العميق بالمأساة.

ولعل الأفضل من بين كتب اللاحقة كتابان في الدراسات التاريخية هما: "Grey Eminence عـام ١٩٤١" و "The Devils of Loudun" عام ١٩٥٢" وتعتبر دراسته "النص والذريعة" (Text and Pretext) - ١٩٣٢ - إحدى الأنتولوجيات الأكثر إثارة واستفزازا

---

(١): طروحات خيالية.م

لعصرها، بالإضافة إلى"Letters" الممتعة والتي تحمل الكثير بين طياتها.

في القرن التاسع عشر فتن اللغز الساحر لنساء "ليوناردو دافنشي" الكتاب. فقد تأمل غوتييه [(١)] والأخوان غونكور [(٢)] في الابتسامة الساحرة للموناليزا، ثم جاءت "ابتسامة الجيوكندا" التي كتبها هكسلي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.لقد نظر إلى جمالها على أنه قاتم ويحمل مسحة شريرة، ثم استحضرها بمهارة "باتر" في مقطع شهير من مقال يدين بشيء ما لـ"ل.ج. روسيتي" في قصيدته الأولى "سيدتنا،سيدة الصخور" وفي "السيدة ليزا" (التي تقدم صورة عامة عن النساء القدريات)، وأصداء لسحرها يرجع من خلال الشعر الرمزي إلى أن قام ألدوس هكسلي بمحاكاتها في قصته الشهيرة: "ابتسامة الجوكندا".

وهنا في "ابتسامة الجيوكندا" يصور لنا هكسلي نظرته اللاذعة عن الادعاءات الفنية والدجل الاجتماعي بشكل ساخر ومتهكم.

(١) تيوفيل غوتييه (١٨١١ ـ ١٨٧٢) شاعر فرنسي وروائي يعتبر من أركان المدرسة البرناسية. م

(٢) آدمون لويس أنطون دوغونكور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٦) ـ وأخيه جول ـ كاتب فرنسي وضع مع أخيه مذكرات شهيرة. م

- "ستكون الآنسة سبينس هنا في الحال ياسيدي".

قال السيد هوتن دون أن يلتفت: "شكراً"

لقد كانت خادمة الآنسة سبينس قبيحة جداً، وكأنها تسعى لإظهار قباحتها عن عمد، تبدو له قبيحة بشكل مؤذٍ وإجرامي. حتى أنه لا يطيق النظر إليها إلا إذا استدعته الضرورة.

وبعد أن أُغلق الباب وبقي لوحده، نهض السيد هوتن وبدأ يتجول في الغرفة، ينظر بعينين متأملتين إلى الأشياء المألوفة التي تحتويها. صور فوتوغرافية لتماثيل إغريقية وأخرى لميادين رومانية، رسوم ملونة للروائع الإيطالية المعروفة والمشهورة جداً.

- "ياعزيزتي جانيت المسكينة، يالها من وضاعة متصلفة". لقد كان ذوقها الحقيقي موضحاً في ذلك اللون المائي لفنان رصيف دفعت له نصف كراون، و(٣٥

شيلن) للإطار. كم مرة سمع منها هذه القصة؟ وكم أسهبت في وصف جمال ذلك التقليد البارع لرسم زيتي؟ "فنان حقيقي في الشارع" ومن طريقة لفظها للكلمات تستطيع أن تسمع الحرف المضخم (ف) في كلمة "فنان". إنها تريد أن تجعلك تشعر وكأن جزء من عظمة ذلك الفنان قد أصابها عندما قدمت له ذلك النصف من الكراون من أجل نسخة من ذلك الرسم. كانت تكنّ ثناء لذوقها وفطنتها. "رسم مشهور وعبقري بنصف كراون، ياللك من تعيسة ياعزيزتي جانيت".

توقف السيد هوتن برهة أمام مرآة مستطيلة صغيرة كي يحصل على صورة كاملة لوجهه. مرر بأصبع أبيض وظفر حسن التقايم فوق شاربيه. كان متموجاً وأصحر كما كان منذ عشرين سنة خلت. مازال شعره محافظاً على لونه، وليس هناك علائم للصلع بعد. ارتفاع في الجبين فقط، "شيكسبيري" هذا مافكر به السيد هوتن بابتسامة بينما كان يمسح الامتداد الناعم والمصقول لجبهته.

- "ينتظر آخرون سؤالنا، أنت حر... وقع أقدام في البحر.. عظمة.. شكسبير، يجب أن تكون حياً في هذه

الساعة. لا، كان هذا ميلتون أليس كذلك؟ ميلتون، سيدة المسيح، لم يكن فيه مايشبه السيدة، لقد كان مثلما يمكن أن تدعوه النساء بـ"رجل همام"، وهذا سبب حبهن له ـ لأن شاربه كان متموجاً وأصحرَ، وأيضاً لأجل رائحة تبغه الزكية. ابتسم السيد هوتن ثانية. فقد كان يسره أن يمازح نفسه. سيدة المسيح؟ كلا، كلا، إنه مسيح السيدات. جميلة جداً، جميلة جداً، مسيح السيدات. تمنى وجود شخص ما ليحكي له تلك المزحة. ياللك من مسكينة ياعزيزتي جانيت، لا يمكن تقدير ذلك ياحسرة!.

استقام السيد هوتن وفرق شعره وتابع ارتجاله: ملعون هذا الميدان الروماني... لقد كره تلك الصور الموحشة وأدرك فجأة أن السيدة سبنس في الغرفة تقف قرب الباب، فجفل كما لو أنه قد تورط في عمل شرير. لقد كانت تلك الظهورات الصامتة والشبحية واحدة من مواهب الآنسة سبنس المميزة. ربما كانت هنا كل الوقت ورأته ينظر إلى نفسه في المرآة.

مستحيل! لكنها ماتزال شبحية.

قال السيد هوتن مجدداً ابتسامته ومتقدماً فاتحاً يديه

للقائها: "آه، لقد وهبتني مثل هذه المفاجأة".

كانت الآنسة سبنس تبتسم أيضاً ابتسامتها الجيوكندية، لقد دعاها منذ لحظة بذلك في لحظة تملق نصف استهزائي. أخذت الآنسة سبنس تعقيبه بشكل جدي. وحاولت مراراً أن تتماشى مع مستوى ليوناردو. ابتسمت بصمت وهي تصافح السيد هوتن، كان هذا جزءاً من عمل الجيوكندا.

قال السيد هوتن: "أتمنى أن تكوني بخير وتبدين كذلك". كم هو غريب وجهها! ذلك الفم الصغير المدفوع إلى الأمام بتعبير الجيوكندا كخرطوم صغير في وسطه فتحة دائرية، كأنها تريد الصفير. كان أنفها يشبه حمالة قلم تشاهد من المقدمة وهو أنف جميل حسن المظهر ومعقوف بشكل جيد. عيناها كبيرتان لامعتان وقاتمتان بالإضافة إلى الاتساع، البريق والقتامة، تبدوان وكأنهما مريضتان بشحوب العينين، وهناك احتقان عَرَضي منتشر عليهما، كانتا عينين رائعتين، لكنهما وقورتان وربما تقوم ريشة الفنان بخدعة جيوكندية لكن العيون لا تتغير بجديتها أبداً. وعلاوة على ذلك كله فهناك زوج من الرموش المقوسة بوضوح والمرسومة بالأسود بشدة لتضفي جواً من القوة المدهشة،

تبدو وكأنها أغريبينا[1] من الحواجب فما فوق.

ـ "لقد فكرت بأن أطل عليك وأنا في طريقي إلى المنزل". ثم تابع يقول: "آه، جميل أن تكوني هنا ثانية" ـ أشار إلى المزهريات، إلى أشعة الشمس والخضرة خلف النوافذ:

ـ "إنه من الجمال بمكان أن تعودي إلى القرية بعد يوم من العمل المضني في المدينة".

أومأت له الآنسة سبنس التي جلست منذ وهلة كي يجلس بجانبها. إلا أنه قال: "كلا، لا أستطيع الجلوس، علي العودة لأرى حال إميلي المسكينة، لقد كانت متوعكة إلى حد ما هذا الصباح". لقد جلس على كل حال: "إنها تلك الرجفات لحي تعيس. إنها دائماً كذلك ـ نساء..."

قاطع وسعل، كأنه يريد إخفاء حقيقة أنه قد لفظ شيئاً. لقد كان على وشك أن يقول إن النساء اللواتي لديهن عسر في الهضم يجب ألا يتزوجن، لكن الملاحظة كانت قاسية،

---

(١) والدة نيرون روما. م

حتى إنه لم يؤمن بها حقاً. لقد كانت جانيت سبنس تؤمن بالنار الأزلية وبحجز الأرواح. "تمنت أن تكون صحتها جيدة بشكل كافٍ" ثم أضاف "كي تراك على الغذاء غداً. هل تأتين؟ إفعلي؟"

ابتسم بشكل متواصل. "إنها تدعوني أنا أيضاً، تعرفين؟".

أسدلت عينيها وظن السيد هوتن بأنه قد اكتشف بعض الاحمرار في خديها. "إنها دعوة". ومسد شاربه.

ـ "سوف أكون راغبة بالزيارة إذا كنت تظن بأن إميلي بحال جيدة حقاً".

ـ "بالطبع. سوف تقدمين لها معروفاً. سوف تقدمين لكلينا معروفاً. في الحياة الزوجية رفقة ثلاثة أفضل من رفقة اثنين".

ـ "أوه، إنك تسخر"

إن السيد هوتن دائماً لديه رغبة ليقول "باااوه بووه ـ...ووو" حالما تقال تلك الكلمة الأخيرة إنها تحثه أكثر من أي كلمة أخرى في اللغة. ولكنه بدلاً من النباح راح يحتج

بسرعة: "كلا، كلا أنا أتكلم فقط عن حقيقة حزينة. فالواقع لا يصل دائماً إلى المثالية. بالفعل، أؤمن بذلك بحماس: المثالية في الزواج بين شخصين في توافق تام. أظن أن ذلك مفهوم. أنا متأكد من ذلك".

توقف بشكل ملفت ونظر إليها بمكر. عذراء في الثالثة والثلاثين، لكنها ماتزال نضرة، لديها سحرها. وهناك أيضاً شيء ما مبهم نوعاً ما في ماحولها ـ لم تجب الآنسة سبنس، لكنها تابعت الابتسام. كانت هناك أوقات كان يمل السيد هوتن فيها إلى حد ما من الجيوكندا. وقف. ثم قال: "علي الذهاب بالفعل الآن. وداعاً، جيوكندا غريبة".

أصبحت ابتسامتها أكثر شدة وتركيزاً في خرطوم ضيق إذا جاز التعبير. وأومأ السيد هوتن بانحناءة على طريقة القرن السادس عشر وقبّل يدها الممدودة. إنها المرة الاولى التي فعل فيها مثل هذا، ولم يبد ذلك مغيظاً.

ـ "سوف أترقب الغد"

ـ "حقاً؟"

قبّل السيد هوتن يدها مرة ثانية موافقاً ثم استدار ليذهب.

رافقته الآنسة سبنس حتى الرواق سألته: "أين سيارتك؟"

ـ "لقد تركتها على بوابة الطريق"

ـ "سآتي لتوديعك"

"كلا، كلا"، كان السيد هوتن مازحاً لكنه مصمم. "يجب ألا تقومي بفعل هذا. أنا ببساطة أمنعك".

عارضت الآنسة سبنس ناثرة جيوكندا سريعة عليه: "لكنني وددت لو أجيء".

مد السنيد هوتن يده وكرر: "كلا"، ثم وبإيماءة بدت على الأغلب قبلة، بدأ يركض أسفل الطريق برشاقة على قدميه، بخطوات وثّابة كطفل. كان فخوراً بهذا الركض، بدا ذلك طفولياً مدهشاً تماماً. ومع ذلك، فقد سُرّ لأن الطريق لم تعد طويلة. وعلى آخر منعطف، قبل أن يتوارى عن المنزل، ترنح ثم استدار. ماتزال الآنسة سبنس واقفة على الدرج، تبتسم ابتسامتها، لوّح بيده هذه المرة بلا ريب وبشكل صريح تماماً بعث مع النسيم قبلة باتجاهها ثم اندفع بقوة مرة أخرى في خببه الجميل دائراً حول آخر نتوء داكن من الشجر. وحالما أصبح في منأى عن النظر خفف من عدوه ليصبح هرولة، وأخيراً إلى مشي. تناول منديله

وبدأ يمسح رقبته داخل قبته. أية حماقة؟ هل وجد مثل هذا الحمق والفقر، ياعزيزتي جانيت سبنس؟ أبداً، إلا إذا كان هو كذلك. ولقد كان من غير ريب أكثر إيذاء منه حماقة، فالمشكلة كانت هي ذاته، المشكلة التي كانت أناساً آخرين...

وصل بوابة الطريق حيث كانت سيارته الكبيرة ذات اللون الملائم مركونة هناك.

- "إلى المنزل يامُناب". لمس السائق قبعته محيِّياً . وأضاف السيد هوتن بينما كان يفتح باب السيارة:

- "وتوقف كالمعتاد عند التقاطع في الطريق".

قال السيد هوتن معبراً عن الظلمة التي تنسل إلى الداخل: "حسناً".

- "أوه، تيدي بير[1]، كم دهراً بقيت؟".

قدمت هذه الكلمات عبر صوت عذب طفولي. لقد كان هناك تلميح ثقيل الوطأة للفظ كوكني[2] غير صحيح للحروف الصوتية.

---

(١) تيدي بير: بمعنى "يا دبدوبي". م

(٢) الكوكني: نسبة إلى أحد شوارع لندن. م

أحنى السيد هوتن جسمه الكبير ووثب إلى السيارة برشاقة حيوان يعدو إلى جحره.

قال وهو يغلق الباب: "أيمكنني فعل ذلك؟"

بدأت السيارة تتحرك.

ـ "إذن فقد اشتقتِ لي كثيراً طالما أنك وجدت الوقت طويل جداً".

جلس في المقعد الخلفي المنخفض، فغلفه دفء عارم.

ـ "تيدي بـ... بـ... يـ... ير". ومع نهدة اطمئنان اتكأ رأس صغير جميل على كتف السيد هوتن. فنظر شزراً على الجانب من حوله مفتوناً، وجه طفولي كان وجهها.

ـ "هل تعلمين يادوريس أنك تبدين مثل صور لويز دو كيرويل. ومرر بأصابعه فوق الشعر الأجعد الكثيف.

فقالت دوريس من مكان بعيد: "من هي لويز دوكيرا ـ كيفما كان ذلك؟"

ـ "لقد كانت، مع الأسف غير مشهورة. سنكون كلنا (كانت) يوماً ما. بينما..."

غطى السيد هوتن الوجه الطفولي بالقبل. اندفعت

السيارة بهدوء. وكان ظهر مناب من خلال النافذة الأمامية جامداً بلا حركة، كظهر تمثال.

- "يداك" همست دوريس، "يجب ألا تلمسني، إنهما تصيباني بصدمة كهربائية".

لقد هام بها السيد هوتن لسذاجة كلماتها. "كم هو متأخر في وجودنا اكتشاف جسد الآخر!"

- "الكهرباء ليست بي، إنها بك". قبلها ثانية وهو يهمس باسمها عدة مرات: "دوريس، دوريس، دوريس. إنها التسمية العلمية للفأر البحري، كان يفكر هكذا وهو يقبل عنقها الممدودة إليه، كانت بيضاء ممتدة كعنق ضحية تنتظر سكين الجلاد. كان الفأر البحري سجقاً بفرو قزحي الألوان، كم هو مختلف!. أو كانت دوريس خياراً بحرياً، تقلّب نفسها في لحظة خطر؟ كان عليه أن يذهب إلى نابولي ثانية، لكي يرى حوض الأحياء المائية فقط. تلك المخلوقات المائية كانت خرافية رائعة لا تصدق.

- "أوه، تيدي بير!" (المزيد من علم الحيوان؛ لكنه كان مجرد حيوان بري. يا لدعاباته الوضيعة البسيطة).

ـ "تيدي بير، أنا سعيدة جداً".

ـ قال السيد هوتن: "وأنا كذلك"

تُرى هل كان ذلك حقيقة؟

ـ "لكنني أرغب معرفة إن كان ذلك صحيحاً. قل لي ياتيدي بير، هل هو صحيح أم لا؟

ـ "آه ياعزيزتي هذا ماكنت أتمنى لو أعرفه في السنوات الثلاثين الماضية".

ـ "كن جدياً ياتيدي بير. أريد أن أعرف إن كان ذلك صواباً، إن كان علي حقاً أن أكون معك هنا وأن يحب بعضنا الآخر، وأتكهرب كلما لمستني".

ـ "صحيح، حسناً، هذا جيد بالتأكيد، أن تحصل على صدمة كهربائية بدلاً من الكبت الجنسي.. فرويد حقيقي، الكبت من الشيطان".

ـ "أوه أنت لا تساعدني. لماذا لا تكون جدياً أبداً؟ لو أنك تعلم كيف أكون تعيسة، عندما أفكر أن ذلك ليس صواباً، ربما، أنت تعلم، يوجد جحيم، وماشابه ذلك. أنا لا أعلم ذلك. مرات أفكر بأن أتوقف عن حبك"، ثم سأل

السيد هوتن وكان واثقاً من قدرة إغوائه وشاربيه:

ـ "لكن هل تستطيعين؟".

ـ "كلا ياتيدي بير، تعلم بأنني لا أستطيع، لكنه يمكنني الهرب، أستطيع الاختباء منك، وأغلق على نفسي وأمنعها من القدوم إليك".

حضنها بقوة. ـ "ما أسخف هذا!".

ـ "أوه ياعزيزي. آمل أن يكون ذلك صواباً. وتكون هناك أوقات لا أهتمُّ فيها إذا كان الأمر غير ذلك".

كان السيد هوتن متأثراً. فهو يملك عاطفة وقائية معينة لهذه المخلوقة الصغيرة. وضع خده على شعرها وهكذا تشابكا، جلسا في سكينة، بينما كانت السيارة، تترنح وتنحدر قليلاً وبينما تزداد سرعةً بدت منسحبة في ذلك الطريق الأبيض والحواف تنثر الغبار باتجاهها.

ـ "مع السلامة، مع السلامة"

تحركت السيارة، جمّعت سرعتها، وتلاشت خلف منحنى، وتركت دوريس واقفة قرب مَعلَم على التقاطع، ماتزال تشعر بدوار وبوهن مع تراخ نتيجة تلك القبل واللمسة

المكهربة لتلك اليدين اللطيفتين. كانت تحتاج لأخذ نفس عميق، كي ترفع نفسها بتأنٍّ، قبل أن تكون قوية بشكل كاف لتبدأ مشوار العودة. كانت تحتاج لنصف ميل كي تخترع الأكاذيب الضرورية. وجد السيد هوتن نفسه ضحية ملل مرعب. كانت السيدة هوتن مستلقية على أريكة في مخدعها تلعب الورق، وعلى الرغم من ذلك المساء من حزيران فإن حطباً كان يشتعل في الموقد. وبمقربته كلب أسود "بوميرانياني" توهنه الحرارة وتعب الهضم، ينام أمام الوهج. سأل السيد هوتن وهو يدخل الغرفة:

ـ "أف! أليست الحرارة زائدة قليلاً هنا؟"

ـ "أنت تعلم أنه علي أن أبقى في الدفء، ياعزيزي". بدا الصوت متقطعاً لامرأة موشكة على البكاء.

ـ "لقد أصبحتُ شديدة التأثر بالبرد".

ـ "أتمنى أن تكوني بصحة جيدة هذا المساء".

ـ "ليس تماماً، أنا خائفة".

صمتت المحادثة بينهما. وقف السيد هوتن منحنياً على دفة الموقد. نظر إلى الكلب القابع عند قدميه، وبمقدمة قدمه

اليمنى كوره وحك صدره الأبيض المنقط وبطنه. مما جعل هذا المخلوق يجثم بنشوة كسولة. تابعت السيدة هوتن لعب الورق. وصلت إلى طريق مسدود. فبدلت مكان واحدة من الورقات واستعادت أخرى، ثم تابعت اللعب. لقد كانت كثيراً ماتلعب الورق وحدها.

ـ "يظن الدكتور ليبارد أنه علي الذهاب هذا الصيف إلى لاندريندود ويلز".

ـ "حسناً اذهبي ياعزيزتي بكل تأكيد".

كان السيد هوتن يفكر بأحداث مابعد الظهر: كيف انقاد هو ودوريس إلى الغابة تركا السيارة لتنتظرهما تحت ظلال الأشجار، صعدا معاً تحت أشعة الشمس إلى ذلك التل الكلسي.

ـ "يتوجب علي شرب الماء بكثرة من أجل كبدي، ويظن أن علي إجراء مساج ومعالجة كهربائية أيضاً".

طاردت دوريس وقبعتها بيدها، أربع فراشات زرقاء كانت ترقص مع بعضها حول وردة شيخ الربيع بحركة تشبه رفرفة النار الزرقاء. تندفع النار الزرقاء وتتحول إلى شرارات

مبعثرة، طاردتها، وهي تضحك وتصرخ مثل طفلة.

ـ "أنا متأكد من أنها ستنفعك ياعزيزتي".

ـ "كنت أتساءل إذا كنت ترغب في الذهاب معي ياعزيزي".

ـ "لكنك تعلمين أنني مغادر إلى اسكوتلندة في نهاية هذا الشهر".

نظرت إليه السيدة هوتن مستعطفة وقالت: "إن التفكير بهذه الرحلة يشبه الكابوس. لا أعلم إن كنت أستطيع تدبير أمري. وأنت تعلم بأنني لا أستطيع النوم في الفنادق. بالإضافة إلى الأمتعة وكل الإرهاقات الأخرى... لا أستطيع الذهاب وحدي".

قال السيد هوتن بنفاذ صبر: "ولكنك لن تكوني وحدك. ستكون خادمتك بصحبتك".

كان يُسحب ببطء من ذكرى أشعة الشمس فوق التل والفتاة السريعة الضاحكة، إلى تلك المرأة المريضة الشاكية والغرفة الممرضة المدفأة بكثرة.

ـ "لا أظن أنني قادرة على الذهاب".

- "لكنه يجب أن تذهبي ياعزيزتي طالما قال لك الطبيب ذلك بالإضافة إلى أن التغيير سوف ينفعك".

- "لا أظن ذلك".

- "لكن ليبارد يظن ذلك، ويعلم عما يتكلم".

- "لا لاأستطيع مواجهة ذلك، إنني ضعيفة جداً. لا أستطيع الذهاب وحدي".

تناولت السيدة هوتن منديلاً من محفظتها القماشية السوداء ووضعته على عينيها.

- "هراء، ياعزيزتي يجب أن تبذلي جهدك".

- "أفضل البقاء هنا والموت هنا". أصبحت تبكي بشكل جدي الآن.

- "ياإلهي كوني عاقلة الآن. اسمعي، رجاء". اكتفت السيدة هوتن بالتنهد بعمق أكثر. "أوه ماذا على المرء أن يفعل؟"- هز كتفيه وخرج من الغرفة.

كان السيد هوتن مدركاً أنه لم يتصرف بشكل لائق، لكنه لم يستطع فعل شيء حيال ذلك. قديماً في فتوته اكتشف أنه لم يكن يشعر بالشفقة على الفقراء، الضعفاء

والمرضى والمعاقين، بل كرههم بالفعل. مرة، قبل التخرج، قضى ثلاثة أيام في بعثة إلى إيست إند (East End). وعاد مشحوناً باستياء عميق لا يمكن استئصاله. وبدلاً من الشفقة راح يشمئز من التعساء. لم يكن هذا شعوراً لائقاً، وهو يعرف ذلك، وكان يخجل منه في البداية. وقرر أخيراً أن ذلك كان مزاجياً، ولا يمكن اجتنابه، ولم يشعر بعدها بأي وخز ضمير. لقد كانت إميلي جميلة وصحيحة عندما تزوجها. كان يحبها في ذلك الوقت. لكن الآن ـ هل هو ذنبها أن تكون هكذا؟ تناول السيد هوتن غذاءه وحيداً. الطعام والشراب جعلاه أكثر خيرية مما كان قبل الغذاء. فدخل إلى غرفة زوجته لإجراء بعض الإصلاحات في مشهده الغاضب وعرض أن يقرأ لها. لقد كانت متأثرة، فقبلت عرضه بكل امتنان، واقترح السيد هوتن الذي كان فخوراً بلهجته قراءات فرنسية مسلية.

تكلمت السيدة هوتن عن لغة راسين كأنها تتكلم عن صحنٍ من البازلاء: "فرنسية؟ إنني مولعة بالفرنسية".

اندفع السيد هوتن إلى المكتبة وعاد يحمل مجلداً أصفرَ، وبدأ يقرأ. وقد استهلك الجهد المبذول من أجل اللفظ

الصحيح كل اهتمامه. وكم كانت جيدة لكنته، هذه اللكنة التي بدت قادرة على تحسين خاصية الرواية التي كان يقرأ.

ومع نهاية خمس عشرة صفحة منه أثاره صوت جلي. رفع بصره، لقد كانت السيدة هوتن تغط بالنوم. جلس هادئاً للحظة، ينظر بحذر إلى الوجه النائم. لقد كانت جميلة مرة منذ زمن بعيدا. مشهدها، ذكرياتها، أعادته إلى عاطفة أقوى، ربما، من أي عاطفة أحسها من قبل أو بعد. هي الآن هزيلة وشديدة النحول. جلدها متهدل فوق عظام خديها، وقصبة أنفها الحاد التي تشبه الطائر. العينان المغلقتان أسبلتا في محاجر عظمية عميقة. والقنديل يضرب وجهها من الجانب مؤكداً الضوء ومظللاً الفجوات والنتوءات. لقد كان وجه مسيح ميت المعنويات.

"Le squelette était invisible
Au temps heureux de l'art païen."[1]

ارتعش السيد هوتن قليلاً ثم غادر الغرفة على رؤوس أصابعه.

---

(١) "كان الهيكل العظمي غير مرئي في الزمن السعيد للفن الوثني". م

وفي الأيام التالية نزلت السيدة هوتن إلى مائدة الغداء. لقد أصابها خلال الليل خفقان قلب مزعج، لكنها الآن تشعر بتحسن. بالإضافة إلى كونها تريد القيام بواجب ضيفتها. أصغت الآنسة سبنس إلى شكواها عن لاندريندود ويلز، فكانت مسرفة بالشفقة، سخية بالنصح. تقول كل شيء بحدة. انحنت إلى الأمام قاصدة الكلام، وكمدفع، أطلقت كلماتها.. وفجأة فرغت الشحنة من روحها وراحت الكلمات تئز في ماسورة فمها الضيق. كانت مدفعاً آلياً تفعم ضيفتها بالشفقة. ولقد خضع السيد هوتن أيضاً لمثل هذا القصف بالكلمات، وغالباً ماكان كلامها عن شخصية أدبية أو فلسفية، عن مايترلنك[1]، الآنسة بيزنت، بيرغسون[2] أو ويليام جيمز. واليوم أصبحت القذائف طبية. فقد تكلمت عن الأرق وأسهبت في فضائل العقاقير غير المؤذية والاختصاصيين المفيدين. ومن خلال القصف تفتحت السيدة هوتن كزهرة تحت الشمس!

(١) موريس مايترلنك: شاعر وكاتب مسرحي بلجيكي (١٨٦٢ ـ ١٩٤٩). منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩١١ . م

(٢): هنري بيرغسون: (١٨٥٩ ـ ١٩٤١): فيلسوف فرنسي منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٢٧ . م

نظر السيد هوتن بهدوء. لقد أثارت نظارة جانيت سبنس في نفسه فضولاً لا ينضب. لم يكن رومانسياً كفاية ليتخيل بأن كل وجه يخفي أسارير داخلية من الجمال أو الغرابة، حيث إن لغو كل امرأة يشبه بخاراً معلقاً فوق خلجان غامضة. زوجته مثلاً، ودوريس! لم تكونا أكثر مما تبديان. أما جانيت سبنس فالأمر مختلف نوعاً ما. فهنا يمكن أن يتأكد من وجود نوع من الوجوه الغريبة خلف ابتسامة الجيوكندا والحواجب الرومانية. السؤال الوحيد كان: "ماذا كان ذلك بالضبط؟" هذا مالم يستطع السيد هوتن أن يكتشفه أبداً.

ـ "لكن ربما لا يكون من الواجب عليك الذهاب إلى لاندريندود بعد كل هذا"، علقت الآنسة سبنس وأضافت:

ـ "إذا تحسنت حالتك بسرعة فإن الدكتور ليبارد سيعفيك من ذلك".

ـ "هذا ماآمل. حقاً، إنني أفضل اليوم وأشعر بتحسن فعلاً".

شعر السيد هوتن بالخجل. فهو لم يكن يشفق عليها وربما كان هذا ما منعها من الشعور بالتحسن. لكنه كان يعزّي نفسه باعتبار أن ذلك لم يكن سوى حالة شعور وليس

في كونها أفضل. فالشفقة لا تشفي كبداً مريضة أو قلباً ضعيفاً.

ـ "يا عزيزتي، لو كنت مكانك لما أكلت من ذلك العنب الأحمر". ثم أضاف بقلق:

ـ "أنت تعلمين أن ليبارد قد منعك من كل شيء ذي قشرة وبذرة".

ـ "ولكنني مولعة بها بشدة". قالت ذلك السيدة هوتن معارضة ثم تابعت: "ثم إنني أشعر بتحسن كبير اليوم".

قالت الآنسة سبنس ناظرة إليه أولاً: "لا تكن قاسياً". ثم إلى زوجته: "دع المريضة البائسة تحصل على ما تتمنى، سيفيدها ذلك". مدت يدها إلى يد السيدة هوتن وربتت عليها مرتين أو ثلاث بحنان.

ـ "شكراً ياعزيزتي". ونهضت السيدة هوتن إلى العنب.

ـ "حسناً لا تلوميني إذا أمرضك ذلك ثانية".

ـ "وهل لمتك في حياتي ياعزيزي؟"

ـ "ليس هناك ما تلومينني لأجله"، وأضاف مازحاً: "أنا الزوج المثالي".

جلسوا في الحديقة بعد الغداء. وراحوا ينظرون من خلال بقع الظل تحت شجرة سرو عبر المدى الممتد اخضراراً، حيث تبدو رياض الزهر براقة أخاذة.

تنهد السيد هوتن بعمق من هذا الدفء والهواء العطر وقال: "جميل أن نكون أحياء".

رددت زوجته: "فقط أن نكون أحياء!" ثم مدت يداً شاحبة معقودة برباط إلى أشعة الشمس.

أحضرت الخادمة القهوة، الركوة الفضية والفناجين الصغيرة الزرقاء قد وضعت على طاولة قرب مجموعة من الكراسي. هتفت السيدة هوتن: "أوه، أدويتي!"

ـ "اركضي وابحثي عنها ياكلارا، هل تفعلين؟ الزجاجة البيضاء على طاولة البوفيه".

ـ "أنا ذاهب"، قال السيد هوتن: "سأذهب وأبحث عن سيجار على أية حال".

واندفع إلى المنزل. وعلى العتبة استدار للحظة. ليشاهد الخادمة عائدةً عبر الأزهار. زوجته جالسة باستقامة على كرسيها الخشبي، منهمكة في فتح مظلتها. وكانت الآنسة

سبنس متكئة على الطاولة، تصب القهوة. وعبر إلى ظلمة المنزل الباردة.

استفسرت الآنسة سبنس: "هل تريدين سكراً في قهوتك؟"

ـ "نعم، من فضلك، لتكن حلوة. سأتناولها بعد الدواء لتزيل طعمه".

أحنت السيدة هوتن ظهرها على الكرسي، مسدلة المظلة على عينيها كأنها تريد أن تغلق مجال رؤية عينيها للسماء المشتعلة. خلفها كانت الآنسة سبنس تصدر صلصلة ناعمة بفناجين القهوة.

ـ "لقد وضعت لك ثلاث ملاعق ممتلئة. علّها تزيل مذاق الدواء، وهاهو يأتي".

ظهر السيد هوتن يحمل كأساً من الخمرة نصف ممتلئة بسائل باهت. وقال وهو يناولها إلى زوجته: "إن رائحتها شهية".

ـ "هذه فقط النكهة". واحتستها ببلعة واحدة، مرتعدة، ثم كشرت.

"ـ أف، إنها مقرفة أعطني قهوتي".

ناولتها الآنسة سبنس الفنجان، فرشفت منه. "لقد جعلتيها مثل الشراب لكنها جيدة جداً بعد هذا الدواء الشنيع".

بعد الساعة الثالثة والنصف شكت السيدة هوتن بأنها لم تعد تشعر بالراحة كما كانت من قبل إضافة إلى كونها أصبحت مرهقة، ودخلت إلى المنزل كي تستلقي في فراشها. كاد زوجها أن يقول شيئاً عن ذلك العنب الأحمر، لكنه ضبط نفسه، إن إحساس الانتصار في عبارة "لقد قلت لك" مكسب بخس. وعوضاً عن ذلك بدا مشفقاً وأعطاها يده ليساعدها في الدخول إلى المنزل.

ـ "إن الراحة سوف تجعلك أفضل". وتابع يقول: "بالمناسبة، سأعود بعد العشاء".

ـ "لكن لماذا، أين ستذهب"؟

ـ "لقد وعدت بأن أذهب إلى بيت جونسن هذا المساء، سوف نناقش ذكريات الحرب أنت تعلمين".

ـ "أوه، أتمنى أن لا تذهب". كانت السيدة هوتن على

وشك البكاء: "ألا تستطيع البقاء؟ لا أحب البقاء وحدي في المنزل".

ـ "لكن ياعزيزتي لقد وعدته منذ أسابيع". لقد كان مربكاً بالنسبة له أن يكذب مثل هذه الكذبة. "والآن يجب أن أعود وأهتم بالآنسة سبنس". قبلها على جبينها وعاد ثانية إلى الحديقة. استقبلته الآنسة سبنس منفعلة مشتاقة.

ـ "إن زوجتك مريضة بشكل مخيف"، وانفعلت أمامه.

ـ "لقد ظننت أنها ستبتهج كثيراً عندما تأتين".

ـ "لقد كان ذلك منفراً تماماً، منفراً تماماً. كنت أراقبها عن قرب". وأضافت: "بقلب منهار في مثل هذه الحالة واستيعاب محطم ـ نعم، محطم ـ فإن أي شيء يمكن أن يحدث".

ـ "إن ليبارد لم يأخذ هذه السوداوية من معاينة صحة إميلي المسكينة". وأمسك السيد هوتن البوابة التي تقود إلى الطريق من الحديقة، كانت سيارة الآنسة سبنس تقف أمام الباب الخارجي.

ـ "ليبارد ليس سوى طبيب عام. يجب أن ترى طبيباً مختصاً".

لم يستطع أن يحجم نفسه عن الضحك: "إنك تملكين هواية رهيبة بالاختصاصيين".

أشارت الآنسة سبنس بكفها معارضة: "أنا جادة في ماأقول. أظن أن إميلي المسكينة في حالة بائسة جداً. وممكن أن يحدث أي شيء في أية لحظة". قادها إلى السيارة وأغلق الباب. أدار السائق المحرك وصعد إلى مكانه مستعداً للانطلاق.

- "هل أقول له انطلق؟" لم يكن لديه رغبة في متابعة الحديث. انحنت الآنسة سبنس إلى الأمام وأطلقت جيوكندا باتجاهه. "تذكر أنني متوقعة مجيئك لتراني ثانية في وقت قريب".

ابتسم بشكل تلقائي، وقام بجلبة لطيفة، وبينما كانت السيارة تتحرك إلى الأمام لوح بيده. كان سعيداً لبقائه وحيداً.

انطلق السيد هوتن بسيارته بعد عدة دقائق. كانت دوريس تنتظره على التقاطع. تناولا العشاء معاً في فندق على الطريق يبعد عشرين ميلاً عن منزله. لقد كانت واحدة من تلك الوجبات السيئة والمكلفة التي تطبخ في فنادق البلدة

يعتادها سائقو الدراجات. قززت هذه الوجبة نفسه لكن دوريس استمتعت بها. إن دوريس دائماً تستمتع بالأشياء. طلب السيد هوتن شمبانيا ليست من صنف جيد. كان يتمنى لو أنه قضى هذه الأمسية في مكتبته.

وعندما بدآ طريق العودة كانت دوريس ثملة قليلاً وحنونة بشكل مفرط. كانت الظلمة حالكة خارج السيارة. ومكنهما النظر إلى الأمام من وراء الشكل الثابت لمناب، من رؤية عالم ضيق براق من الأشكال والألوان التي تُرى بمساعدة الأنوار الكهربائية.

وعندما وصل السيد هوتن إلى منزله كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. قابله الدكتور ليبارد في البهو. كان رجلاً صغيراً ويداه رقيقتان وملامحه مرتبة بشكل حسن حيث تشبه إلى حد ما ملامح الأنثى. عيناه البنيتان كانتا كبيرتين وحزينتين. كان معتاداً على تمضية وقت طويل يجلس على حافة السرير بجانب مرضاه، الحزن يطل من عينيه ويتكلم بحزن، بصوت منخفض عن أشياء لا تهم على وجه الخصوص. تنبعث منه رائحة المخدر ولاشك، لكنه بنفس الوقت لطيف وفاتن بشكل متفرد.

قال السيد هوتن مندهشاً: "ليبارد، أنت هنا؟ هل زوجتي مريضة؟"

ـ "لقد حاولنا البحث عنك في وقت مبكر"، تابع الصوت الناعم الكئيب: "كان متوقعاً أنك في بيت السيد جونسن، لكنهم لم يعلموا أي شيء عنك". أجاب السيد هوتن بنزق: "لا، فقد حدث ماأعاقني، عطل في السيارة". كم هو متعب أن يتورط المرء في كذبة.

ـ "كانت زوجتك تريد رؤيتك بإلحاح".

ـ "حسناً أستطيع رؤيتها الآن". وتحرك السيد هوتن باتجاه الدرج. فمد الدكتور يده فوق يد السيد هوتن: "أخشى أن يكون قد فات الأوان؟" وبدأ يتحسس بارتباك ساعته التي لم تكن لتخرج من جيبه.

ـ "لقد قضت السيدة هوتن منذ نصف ساعة خلت".

بقي الصوت في نعومته، وحزن العينين لم يتعمق. تكلم الدكتور ليبارد عن الموت كأنه يُراد الكلام عن سباق الكريكيت المحلي، كل الأشياء متماثلة في عدم الجدوى ومتماثلة في البؤس.

وجد السيد هوتن نفسه يفكر بكلمات جانيت سبنس: "في أي لحظة، في أي لحظة". لقد كانت محقة تماماً.

سأل السيد هوتن: "ماذا حدث، ماذا كان السبب؟"

وضح الدكتور ليبارد: "لقد كان فشلاً في القلب نتج عن نوبة عنيفة من الغثيان، سببها تناول شيء ذي طبيعة قشرية.

سأل السيد هوتن: "عنب أحمر؟"

ـ "مرجح جداً. لقد كان هذا ثقيلاً جداً على القلب. كانت مصابة بمرض صمامي مزمن. لقد انهار شيء ما نتيجة التوتر، لقد انتهى كل شيء. كان بإمكانها تجنب كثير من الألم".

كان الجنرال غريكو يقول وهو يقف، وقبعته بيده، تحت ظل مدخل مدفن الكنيسة ماسحاً وجهه بمنديل: "من المؤسف أنه كان عليهم اختيار يوم مباراة إيتون مع هارو من أجل الجنازة".

سمع السيد هوتن هذه الملاحظة، وبصعوبة كبح رغبة في إنزال عقوبة جسدية مؤلمة بالجنرال، وكان سيسره توجيه

ضربة إلى ذلك الأعمى العجوز في منتصف وجهه الأحمر الكبير..

أليس هناك احترام للموتى؟ ألا يهتم أحد؟ لم يكن يكترث كثيراً للفكرة، دع الموتى يدفنون موتاهم. ولكن هنا، بجانب القبر، وجد نفسه ينشج بالفعل. "إميلي البائسة"! لقد كانا سعيدين معاً، وهاهي الآن تقبع في قعر حفرة بعمق سبعة أقدام وهنا كان غريكو يشكو من أنه لم يستطع الذهاب لمشاهدة مباراة إيتون وهارو.

نظر السيد هوتن حوله إلى الأشكال السوداء التي كانت تنجرف ببطء خارج المقبرة باتجاه أسطول من السيارات والدراجات المتجمعة على الطريق خارجاً أمام خلفية المقبرة المشرقة بعشب حزيران. بدت الورود والأوراق المزركشة بمظهر غير طبيعي وبغرابة مريعة. وقد سره التفكير بأن كل أولئك الرجال سيصبحون لاحقاً أمواتاً أيضاً.

جلس في ذلك المساء متأخراً في مكتبته يقرأ عن حياة ميلتون. لم يكن هناك سبب خاص لاختيار ميلتون بالذات، إنه الكتاب الذي وقع في يده أولاً، هذا كل مافي الأمر، ولم ينته من قراءته إلا بعد منتصف الليل. انتصب واقفاً فتح

النوافذ الفرنسية، وخطا خارجاً باتجاه المصطبة المرصوفة. كان الليل هادئاً وصافياً. نظر إلى النجوم وإلى الفتحات فيما بينها، وأسدل عينيه باتجاه المرج المعتم وورود الحديقة عديمة اللون، وتركهما تجولان في المنظر البعيد، السواد والرمادي تحت وجه القمر.

بدأ يفكر بنوع من العنف المضطرب. كانت هناك النجوم والليل. عظيمة، نبيلة. لكن هل يوجد فرق حقاً بين النبيل والحقير؟ ميلتون، النجوم، الموت ونفسه، نفسه. الروح، الجسد، الطبيعة الأعلى والدنيا. ربما هناك شيء فيها، بعد كل ذلك لميلتون رب بجانبه، واستقامة. ماذا كان لديه؟ لاشيء البتة، لاشيء. لم يكن هناك غير نهدي دوريس الصغيرين. ماذا كانت الميزة في كل ذلك؟ ميلتون، النجوم، الموت، وإميلي في قبرها. دوريس ونفسه، دائماً نفسه...

أوه لقد كان كائناً لا طائل منه ومقرف. كل شيء يقنعه بها. لقد كانت لحظة كئيبة. تكلم بصوت عال: "أنا سوف.. أنا سوف...". لقد كانت جلبة صوته في الظلمة مريعة، بدا له وكأنه قد أقسم يميناً شيطانيةً تُلزم حتى الآلهة. "أنا سوف.. أنا سوف...".

لقد كانت أياماً من سنة جديدة وذكريات سنوية كئيبة في الماضي، عندما أحس بنفس الندم وسجل قرارات مشابهة. لقد اضمحلت كلها، كل القرارات، مثل الدخان، إلى لاشيء. لكن تلك كانت لحظة أعظم وقد لفظ يميناً مرعبة أخرى. في المستقبل سيكون ذلك مختلفاً. نعم سيعيش بتعقل، ويصبح مجدّاً، ويكبح شهواته، و سيكرس حياته لبعض الأغراض الطيبة. كان ذلك مقرراً، ويجب أن يكون هكذا.

وجد نفسه بالممارسة يضيّع صباحاته في أمور الزراعة، يجول مع وكيل المزرعة و يرى أن أرضه قد زرعت بأفضل طريقة عصرية، السلوات[1] والأسمدة، الحصاد المستمر، وكل ذلك. وبقية النهار يجب أن يكرس للدراسة الجدية. كان هناك ذلك الكتاب الذي عزم على كتابته منذ أمد: "أثر الأمراض على الحضارة".

ذهب إلى سريره ذليلاً منسحق الفؤاد، لكنه أحسّ أن

---

(١) السلوة: مبنى اسطواني خشبي أو إسمنتي عالٍ محكم الإغلاق يحفظ فيه علف الحيوان.

الرحمة قد دخلت إليه. نام لسبع ساعات ونصف، استيقظ ليجد الشمس مشرقة براقة. لقد تحولت انفعالات المساء بفضل الراحة التي تلقاها الليلة السابقة إلى بهجة مألوفة. واستغرقت منه بضع دقائق حتى أفاق عندما تذكر قراراته، وقسمه الذي لا تُنتهك حرمته. ميلتون والموت بَدَوَا نوعاً ما مختلفين تحت أشعة الشمس. أما النجوم فلم تعد هناك، والقرارات كانت جيدة، حتى في أوقات النهار يمكنه رؤية ذلك. سرج حصانه بعد الفطور وامتطاه حول المزرعة مع الوكيل. بعد الغذاء قرأ لثوثيديديس(١) عن الوباء في أثينا. وفي المساء كتب بعض الملاحظات عن الملاريا في جنوب إيطاليا. وبينما هو يخلع ثيابه تذكر أنه توجد حكاية في كتاب سكيلتون الساخر عن المرض المقلق. وفكر بأن يكتب ملاحظة عنه إذا استطاع إيجاد قلم رصاص.

في الساعة السادسة صباحاً من حياته الجديدة وجد السيد هوتن بين رسائله مغلفاً معنوناً بخط مميز مألوف كان

---

(١) Thucydides (٤٦٠ ـ ٤٠٠ ق.م) : مؤرخ أثيني ـ يعتبر من أهم المؤرخين اليونان على الاطلاق. م

يعرف أنه من دوريس. فتحه، ثم بدأ يقرأ. لم تكن تعرف ماذا تقول، فالكلمات لم تكن ملائمة. زوجته تموت بتلك الطريقة، وبشكل مفاجيء هكذا ـ كان ذلك مرعباً. تنهد، لكن اهتمامه انتعش نوعاً ما وهو يتابع القراءة:

"الموت مخيف جداً، لم أفكر به أبداً عندما أقدر أن أحول دونه. لكن إذا حدث شيء مثل هذا، أو عندما أشعر بالمرض أو بالوهن فلا يمكنني منع نفسي من تذكره ووجوده بالقرب مني، وأفكر بكل الأعمال الشريرة التي قمت بها، أيضاً عنك وعني، وأحارُ ماذا سيحدث، وأنا خائفة جداً. إنني وحيدة جداً ياتيدي بير، وحزينة جداً ولا أعرف ماذا أفعل.. لا أستطيع التخلص من فكرة الموت، إنني بائسة جداً وعاجزة من دونك. لم أكن أعني الكتابة لك، وإنما عنيت الانتظار حتى تكون خارجاً في الصباح ويمكنك المجيء وتراني ثانية، لكنني كنت وحيدة وتعيسة ياتيدي بير، كان يجب أن أكتب. لم أستطع إيقاف ذلك. سامحني فأنا أريدك كثيراً جداً، ليس لي في هذه الدنيا أحد سواك. أنت طيب جداً ولطيف ومتفهم أيضاً ولا يوجد مثيلك. لن أنسى أبداً كيف كنت طيباً ولطيفاً معي، وأنك ذكي جداً وتعرف الكثير. لا أستطيع فهم عدم مجيئك أبداً لتعيرني أي

اهتمام، إنني بليدة جداً وغبية، إنك تحبني وتودني أكثر بقليل. أليس كذلك ياتيدي بير؟".

شعر السيد هوتن بالعار والندم. إذ يُظن به هكذا، يخجل كونه أغوى الفتاة. لقد كان ذلك كثيراً جداً. كان ذلك جزءاً من خلاعة بلهاء. أبله، معتوه: لا توجد طريقة أخرى لوصفه. وبعد أن قال هذا واستخلص قليلاً من المتعة فيه راح يجمع كل الأشياء مع بعضها. راح الملل ينفذ إلى أعصابه بدلاً من التسلية.

مرة صدق نفسه أنه يستمتع، لكن لكي تستمتع يجب أن تطبق عملية معينة من التعقل، اختبار مقصود للمتع المعروفة، ورفض الآلام المعروفة. تم هذا من دون تفكير، لكن ضده. لأنه كان يعلم جيداً وبشكل مسبق ، أنه لا يوجد اهتمام أو متعة في انتشاله من هذه القضايا الخسيسة. وكلّما وافته لهفة غامضة يخضع لها، متورطاً مرة أخرى في غباوته القديمة. كانت هناك ماجي خادمة زوجته القديمة وفتاة المزرعة إيديث والسيدة برنغل، النادلة من لندن، وأخريات ، كان كل هذا تافهاً ومملاً. علم أن ذلك سوف يكون، دائماً هو يعرف. وفوق ذلك، وفوق ذلك... التجربة لا تعلّم.

أيتها الفقيرة دوريس الصغيرة! سيكتبَ لها بلطف، وبأريحية، لكنه لن يراها ثانية.

جاءت خادمه لتخبره أن حصانه قد سُرج وأصبح جاهزاً بانتظاره. فامتطاه وانطلق.

في ذلك الصباح بدا وكيل المزرعة العجوز مضطرباً أكثر من العادة.

وبعد خمسة أيام كانت دوريس والسيد هوتن يجلسان معاً على رصيف في سوذند ترتدي دوريس الموسلين الأبيض مطرزاً عليه بالوردي وتبدو مفعمة بالسعادة، السيد هوتن قدماه ممدودتان وكرسيه يتمايل، لقد دفع القبعة إلى الخلف من على رأسه وكان يجهد نفسه كي يشعر مثل سائح. تلك الليلة، وعندما كانت دوريس نائمة تتنفس وترشح بالدفء قربه، استرد في تلك اللحظة من الحلكة والتعب الجسدي، العواطف الجياشة التي كانت تتملكه في تلك الأمسية، وليس منذ أسبوعين عندما اتخذ قراره العظيم. حيث ذهب قسمه الجليل مثلما ذهب كثير من القرارات السابقة. لقد انتصر الجنون، وعند أول إثارة للرغبة تراجع. لقد كان بلا أمل، بلا أمل.

استلقى لفترة طويلة مغمض العينين يتأمل وضاعته. ترك الفتاة ببطء أثناء نومها. استدار ونظر باتجاهها. انسل ضوء باهت بين الستارتين نصف المسدلتين ليُظهر ذراعيها العارية وكتفها، رقبتها، وشعرها الأسود المتشابك فوق الوسادة. كانت جميلة وجذابة. لماذا يستلقي هنا نائحاً على خطاياه؟ ماذا يهم؟ إذا كان هو يائساً فليكن هذا، سوف يقوم بفعل الأفضل في يأسه. وفجأة امتلأ بشعور عارم باللامسؤولية. لقد كان حراً، حراً بشكل جميل. وجذب الفتاة بشدة إليه. استيقظت، حائرة ومرتعبة من قبلاته الخشنة.

لقد همدت عاصفة الرغبة هذه لديه وتحوّلت إلى مرح جليل. وبدا الجو كله يهتز من الضحك الصامت.

- "هل يمكن لأحد أن يحبك مثل حبي لك ياتيدي بير؟".

جاء سؤالها باهتاً وكأنه يأتي من عوالم الحب البعيدة. أجاب السيد هوتن:

- "أظن أنني أعرف شخصاً يحبني مثل هذا الحب".

كان الضحك الغاطس يعلو ويرتفع مستعداً ليكسر سطح السكون ويدوي.

- "من؟ قل لي. ماذا تعني؟".

جاء صوتها قريباً جداً مشحوناً بالريبة والألم والسخط، كان ينتمي إلى العالم الحالي.

- "آه"

- "من؟"

- "لن تحزري".

احتفظ السيد هوتن بالنكتة حتى بدأت تصبح مملة، ثم لفظ الاسم: "جانيت سبنس".

لم تكن دوريس مصدقة. "الآنسة سبنس صاحبة المزرعة؟" تلك المرأة العجوز؟"

كان شيئاً مضحكاً للغاية. ضحك السيا هوتن أيضاً.

- "لكن هذا حقيقي تماماً". تابع السيد هوتن ليقول:

- "إنها تعبدني". أوه هذه النكتة الكبيرة، كان سيذهب لرؤيتها حالما يعود، يراها وينتصر عليها.

- "أظن أنها تريد الزواج مني".

- "لكنك لا تريد... أنت لم تقصد..."

كان الهواء رقيقاً يتفرقع بالدعابة. ضحك السيد هوتن بصوت عال.

ـ "إنني عازم على الزواج منك". بدت له هذه أفضل نكتة قالها في حياته.

عندما غادر سوذند كان رجلاً متزوجاً للمرة الثانية. وقد اتفقا في ذلك الوقت على أن يكون الأمر سرياً. وسيذهبا هو ودوريس في الخريف إلى الخارج معاً. عندها يتوجب عليه إخبار الناس. في غضون ذلك كان عليه أن يذهب إلى منزله ودوريس عليها الذهاب إلى منزلها أيضاً.

في أمسية اليوم التالي لعودته تمشى لمقابلة الآنسة سبنس. فاستقبلته بابتسامتها الجيوكندية المألوفة.

ـ "كنت متوقعة قدومك"

أجاب السيد هوتن بلباقة: "لم أستطع الغياب أكثر من ذلك".

جلسا في المنزل الصيفي. كان مكاناً بهيًجاً ـ حيث يوجد هيكل جصي لتعريشة قديمة بين الشجر الكثيف الدائم الخضرة. ولقد تركت الآنسة سبنس لمستها بتعليقها عليها

فوق المقعد لوحة من لوحات من ديلاروبيا[1] الزرقاء والبيضاء.

- "أفكر بالذهاب إلى إيطاليا هذا الخريف" شعر السيد هوتن وكأنه زجاجة من زنجبيل الجعة جاهزة لتفرقع مع المتعة المرحة الوهمية.

- "إيطاليا؟" أغلقت عينيها بشكل جذاب: "أشعر بأنني جذبت إلى هناك أيضاً".

- "لماذا لا تنقادي إليها إذن؟"

- "لا أعرف، أحياناً المرء لا يملك القدرة وروح المبادرة لبدء ذلك لوحده".

- "لوحده.. آه"، (أصوات غيتارات وغناء أوبيرالي)!

- "نعم ليس مسلياً أن يسافر المرء لوحده".

اتكأت الآنسة سبنس على كرسيها دون كلام. ماتزال

---

(١) لوكاديلاً روبيا: (١٤٠٠ - ١٤٨٢). نحات إيطالي من فلورنسة أشهر أعماله عبارة عن سلسلة من الملائكة المغنين تدعى "كانتوريا"، صاحب تقنية خاصة في إضفاء مسحة ملونة ومصقولة على الفخار الغير مصقول. م

عيناها مغلقتين. لمس السيد هوتن شاربيه. أطالت السكينة نفسها فبدا الوقت طويلاً جداً.

أصرت عليه كي يحضر على الغداء فلم يرفض. لقد بدأ المزاح الآن. كانت الطاولة موضوعة على اللوج. نظرا من خلال الأقواس عبر الحديقة المائلة إلى التلال والوادي الأبعد. انسحب الضوء بعيداً، الحرارة والهدوء كانا ثقيلي الوطأة. وكانت هناك غيمة كبيرة تتصاعد إلى السماء وكان يسمع من بعيد هزيم رعد. صار الهزيم يقترب أكثر، وبدأت الريح تهب، وسقطت أولى قطرات المطر. غسلت الطاولة. جلس السيد هوتن والآنسة سبنس في العتمة المتزايدة. كسرت الآنسة سبنس الصمت حين قالت بتأمل: "أظن أن لكل شخص حقاً في قسط من السعادة. أليس كذلك؟".

ـ "بكل تأكيد". ولكن إلى ماذا كانت ترمي من ذلك؟ لا أحد يقوم بوضع التعليمات عن الحياة إلا إذا كان يعني الكلام عن نفسه. السعادة؛ التفت بأفكاره إلى الماضي من حياته، رآها حياة مرحة وهادئة لم تعترضها آلام كثيرة أو قلق أو مخاطر. كان ميسوراً دائماً ويملك حريته. كان قادراً على فعل الكثير مما يريد. نعم، كان يظن أنه سعيد، أسعد من

الكثير من الرجال. والآن لم يعد سعيداً فحسب، لقد اكتشف من دون إحساس بالمسؤولية سر الابتهاج. كان على وشك أن يقول شيئاً عن سعادته عندما تابعت الآنسة سبنس حديثها:

ـ "أشخاص مثلنا أنا وأنت يملكون الحق ليكونوا سعداء أحياناً في حياتهم".

قال السيد هوتن بتعجب: "أنا؟"

ـ "هنري الطيب! لم يُعامل القدر أحداً منا بشكل جيد".

ـ "أوه حسناً، ربما عاملني أنا بأسوأ حال".

ـ "أنت شخصية مرحة. وهذه شجاعة منك. لكن لا تظن بأنني لا أستطيع رؤية ماخلف القناع".

راحت الآنسة سبنس تتكلم بصوت عالٍ أكثر فأكثر بينما يتساقط المطر ثقيلاً بالتدريج. والرعد راح يقطع صوتها بشكل دوري. تابعت الكلام صارخة لتتغلب على الضجة:

ـ "لقد فهمتك جيداً ومنذ مدة طويلة".

أظهرها البرق تواقة عازمة، منحنية باتجاهه. كانت عيناها ماسورتي بندقية عميقة وخطرة. ثم ابتلعتها الظلمة ثانية.

ـ "كنت روحاً وحيدة تبحث عن روح رفيقة. كنت أتعاطف معك بسبب عزلتك، زواجك..."

قطع الرعد الجملة. وأصبح صوت الآنسة سبنس مسموعاً ثانية مع كلمات:

ـ "... لا يمكن أن تُوفِّر رفقة لرجل من طابعك، كنت تحتاج إلى خليلة".

خليلة !.. هو!.. خليلة!.. كم كان ذلك غريباً إلى حد لا يصدق.

ـ "جورجيت لبلانك، الخليلة السابقة لموريس ماترلينك". وجد ذلك على ورقة منذ عدة أيام خلت. إذن هكذا رسمته جانيت سبنس في خيالها ـ كخليل. أما بالنسبة إلى دوريس فقد كان آية في الطيبة ومثالاً للرجل المتوقد في العالم. وبالفعل، حقاً، كان ماذا؟ من يدري؟

ـ "قلبي مال إليك. أستطيع أن أفهم، إنني وحيدة أيضاً"

وضعت الآنسة سبنس يدها على ركبتها.

ـ "كنت صبوراً جداً". برق آخر. كانت ماتزال عازمة، بشكل خطر.

ـ "إنك لم تشك أبداً. لكنني خمنت... أستطيع التخمين".

ـ "يا لروعة ما بدر منك !" كان هكذا:

"âme incomprise"(1)

ـ "حدس امرأة فقط.."

هزيم رعد مرة أخرى، يختفي، ولم يبق سوى صوت المطر. ضحكه كان رعداً، مجلجلاً وجلياً. لمع ودوي، تكرر ذلك ثانية فوقهما من جهة اليمين.

ـ "ألا تشعر بأنك تحوي شيئاً ما في نفسك مماثل لتلك العاصفة؟"

أمكنه تصورها تنحني إلى الأمام وهي تلفظ تلك الكلمات.

ـ "العاطفة تجعل المرء مماثلاً للعناصر".

بماذا سيستهل الكلام الآن؟ لماذا، وبشكل واضح كان عليه أن يقول: "نعم"، ويجازف بهذه الإيماءة الواضحة.

---

(١) "روحا صعبة الفهم" .م

لكن السيد هوتن استلبه الخوف فجأة. بيرة الزنجبيل هذه أصبحت بلا نكهة. المرأة كانت جدية ـ جدية بشكل مرعب. لقد كان خائفاً.

العاطفة؟ "لا"، أجاب بشكل يائس:

ـ "أنا من دون عواطف".

لكن هذا التعليق إما أنه لم يُسمع أو أنه لم يُقابل باهتمام، لأن الآنسة سبنس تابعت من شعور متصاعد بالأهمية، تتكلم بسرعة كبيرة، وفي مثل هذا الهمس الحميمي المتقد حيث وجد السيد هوتن أنه من الصعب التمييز فيما كانت تقول. كانت تخبره بقدر ماكان يستطيع أن يفهم ـ قصة حياتها. أصبح اللمع أقل الآن. وكانت هناك فترات فاصلة طويلة من العتمة. لكن ومع كل لمعة كان يراها ماتزال مائلة باتجاهه، ماتزال تندفع للأمام بقوة مرعبة. الظلمة، المطر، ثم لمعة! وجهها كان هناك، مقدار ذراع. قناع شاحب أبيض مخضر، العينان الواسعتان، فتحة الفم الضيقة، الحواجب الكثيفة. أغريبينا أو لم تكن هي إلى حد ما ـ جورج روبي؟ بدأ يدبر خططاً عابثة للنجاة. ربما يقفز فجأة مدعياً أنه قد رأى لصاً ـ توقف أيها اللص! توقف أيها اللص!

ثم يندفع بقوة للحاق به. أو أن يقول بأنه قد شعر بأن رأسه تدور، أو أنه يشعر بنوبة قلبية، أو أنه قد رأى شبحاً ـ شبح إميلي ـ في الحديقة؟ وبيما هو منهمك في حبكاته الطفولية، توقف اهتمامه بكلماتها. لكن قبضة يدها التشنجية تعيده إلى أفكاره. كانت تقول: "أحترمك من أجل ذلك ياهنري". تحترمه من أجل ماذا؟

ـ "الزواج عبارة عن قيد مقدس، واحترامك له ـ حتى ولو كان الزواج، كما هو في حالتك، غير سعيد ـ يجعلني أحترمك وأقدرك، و ـ أيمكنني أن أجرؤ على قول كلمة؟"

أوه اللص، الشبح في الحديقة! لكن الوقت قد تأخر.

ـ "...، نعم، أحبك ياهنري! أكثر من أي شيء. إننا أحرار الآن، ياهنري".

ـ "أحرار؟ كانت هناك حركة خفية في الظلمة، وكانت تنحني على الأرضية أمام كرسيه.

ـ "أوه، هنري، هنري، لم أكن سعيدة أيضاً"

عانقته يداها، ومع هزة جسدها أمكنه الشعور بها تنشج. ربما كانت تبكي بتوسل لكي تنال الشفقة.

ـ "لا يجوز ياجانيت" تمنّع قليلاً. تلك الدمعات كانت مروعة. مروعة.

ـ "ليس الآن، ليس الآن! يجب أن تكوني هادئة، يجب أن تذهبي إلى الفراش"

ربت على كتفها، ثم نهض محرراً نفسه من عناقها. تركها جاثمة على الأرضية قرب الكرسي الذي كان يجلس عليه.

تلمس طريقه إلى البهو، ومن دون انتظار ليبحث عن قبعته، خرج من المنزل، باذلاً جهداً عظيماً لإغلاق الباب الأمامي خلفه من دون أن يحدث صوتاً. تلاشت السحب ، والقمر كان يشع من سماء صافية. والبرك كانت منتشرة على طول الطريق، وصوت ماء جار يصدر من المزاريب والخنادق. شق السيد هوتن طريقه في الماء غير عابىء بالبلل.

كيف نشجت مقطعة القلب! مع مشاعر الشفقة والندامة. كل هذا قد حرض في نفسه شعوراً بالامتعاض: لماذا لم تستطع أن تلعب اللعبة التي كان يلعبها هو، اللعبة المسلية الجبانة؟ نعم، ولكنه كان يعلم طوال الوقت أنها لن

تفعل، فهي لا تقدر أن تقوم بتلك اللعبة، لقد علم واستمر.

ماذا قالت عن العاطفة والعناصر؟ شيء مبتذل سخيف لكنه حقيقي، حقيقي. كانت هناك غيمة قلبها أسود ومشحونة بالبرق، وهو، مثل بنيامين فرانكلين الصغير، قد قاد طائرة ورقية إلى قلب الخطر. والآن يشكو من أن لعبته قد جلبت البرق.

من المحتمل أنها ماتزال تجثم قرب الكرسي في الشرفة الصيفية، تبكي. لكن لماذا لم يكن قادراً على الاستمرار في اللعبة؟ لماذا هجرته اللامسؤولية، تاركة إياه وقوراً فجأة في عالم بارد؟ لم تكن هناك أية أجوبة لاستفساراته، فكرة واحدة تتقد بثبات وبشكل واضح في مخيلته ألا وهي الهروب. يجب أن يرحل حالاً.

ـ "بماذا تفكر ياتيدي بير؟"

ـ "لاشيء"

عمّ صمت وبقي السيد هوتن بلا حركة، حاجبان مركزان على متراس المصطبة، ذقنه بين يديه، ينظر إلى فلورنسه. لقد اشترى فيلا على احدى قمم التلال في جنوب

البلدة. ومن مصطبة مرتفعة قليلاً على طرف الحديقة يمكنك رؤية واد خصب طويل مطل على المدينة وخلفه الكتلة الجرداء من مونت موريللو وشرقه باتجاه هضبة فيزول المسكونة، والمنقطة بالبيوت البيضاء، كل شيء كان واضحاً ومضاء تحت شمس أيلول.

ـ "هل أنت قلق بشأن شيء ما؟"

ـ "لا شكراً لك"

ـ "اخبرني ياتيدي بير"

ـ "لكن ياعزيزتي لا يوجد ما أخبرك به". استدار السيد هوتن وابتسم، ثم ربت على يد الفتاة.

ـ "أظن أنه من الأفضل لك أن تدخلي وترتاحي فترة القيلولة، فالطقس حار عليك هنا"

ـ "لابأس ياتيدي بير، هل أنت أيضاً آت؟"

ـ "حالما أنهي سيجاري"

ـ "حسناً أنهه بسرعة ياتيدي بير"

ببطء وعلى مضض، صعدت درجات المصطبة ومشت باتجاه المنزل. تابع السيد هوتن تأمله بفلورنس. كان في

حاجة لكي يبقى وحيداً. أحياناً لابأس أن يهرب من دوريس وعاطفتها الغامرة تجاهه. لم يعرف أبداً آلام الحب بلا أمل، لكنه قد جرب الآن آلام كونه محبوب. كانت الأسابيع الأخيرة هذه فترة تصاعد القلق. دوريس دائماً معه، كقطعة من ممتلكاته، وكشاعر بالاثم. نعم، لابأس أن يبقى المرء لوحده. سحب مغلفاً من جيبه، وفتحه، بقليل من النفور. إنه بكره الد سائل، فهي دائماً تحتوي أشياء غير سارة، وخصوصاً هذه الأيام، منذ زواجه الثاني.

كانت هذه الرسالة من أخته. بدأ يتصفح من خلال الشتائم التي كانت تتجمع فراحت تظهر له كلمات على الدوام مثل: "لهو غير لائق"، "انتحار جماعي"، "باردة في قبرها"، "شخص من "الطبقات الدنيا"... إلخ. هذه الكلمات تحتم أنها من قريب يعي مايقول ويفكر بطريقة صحيحة. بنفاذ صبر كان على وشك أن يمزق الرسالة الغبية عندما وقعت عيناه على جملة في أسفل الصفحة الثالثة. وراح قلبه ينبض باضطراب عندما قرأها. لقد كانت فظيعة فجانيت سبنس كانت تجول وتخبر كل شخص بأنه قد سمم زوجته ليتسنى له الزواج من دوريس. أي خبث لعين هذا؟ وعلى

الرغم من أن السيد هوتن هو عادة ذو مزاج هادىء، إلا أنه بدأ يشتاط غيظاً. وراح يشبع رغبة طفولية في الشتم ولعن تلك المرأة.

ثم وفجأة رأى الجانب الساخر من الموقف. حماقة أن يجرم بأحد من أجل الزواج من دوريس! لو أنهم فقط يعرفون كم كان ضجراً وبائساً. عزيزتي جانيت البائسة! لقد حاولت أن تكوني ماكرة، فنجحت في أن تكوني غبية فقط.

تنبه لصوت وقع أقدام، نظر حوله. في الحديقة خلف المصطبة الصغيرة كانت خادمة المنزل تلتقط الثمار. نيوبوليتانية تائهة، مختلفة نوعاً ما عن سكان الشمال وعن الفلورنسيين، لقد كانت عينة من نموذج كلاسيكي منحط قليلاً. صورة وجهها من الجانب كأنه مأخوذ عن عملة صقلانية في فترة رديئة. ملامحها منحوتة بشكل منّمق من التراث الجليل، يعبر في أكثر الأحايين عن غباء مطلق. فمها أجمل شيء فيها، قد حنته يد الطبيعة الخطاطة بلباقة ليعبر عن مزاج عنيد سيء. خلف ثيابها السوداء البشعة تكهن السيد هوتن بجسد قوي، مكتنز وكبير. لقد نظر إليها

من قبل باهتمام غامض وفضولي واليوم فإن الفضول قد جدد نفسه وركزها إلى رغبة. أنشودة لثيوكريتس.

كانت المرأة هنا، وهو ـ ياحسرة ـ لم يكن يشبه بدقة راعياً على الهضاب البركانية ثم ناداها: "أرميدا"

كانت الابتسامة التي أجابته بها مثيرة جداً، تشهد وببساطة على قوة، أخافت السيد هوتن. لقد كان مرة أخرى على الحافة ـ الحافة. يجب أن يرتد إلى الخلف، أوه، بسرعة، بسرعة قبل أن يفوت الأوان. تابعت الفتاة النظر إليه.

سألته أخيراً: "ها، شياماتو؟"

الحماقة أم التعقل؟ أوه، ليس هناك خيار الآن. الحماقة كانت موجودة كل الوقت.

ـ "سيندو". ناداها مرة أخرى. اثنتا عشرة درجة تقود من الحديقة إلى المصطبة. عدها السيد هوتن، أسفل، أسفل، أسفل،...

ورأى نفسه أنه ينزل من دائرة الجحيم إلى الأخرى، من الظلمة المليئة بالرياح والبرد إلى هاوية من الطين النتن.

بعد عدة أيام أخذت قضية السيد هوتن حيزاً في

الصفحات الأولى للجرائد فمنذ أن أغرق جورج سميث
إبان الحرب الأوربية عروسه في الماء الدافىء لم تشهد البلاد
محاكمة شعبية لجريمة. لقد أثارت تلك القصة الخيال الشعبي
عن جريمة تعود إلى الأضواء بعد أشهر من زمن الجريمة. وهنا
يوجد واحد من تلك الأحداث للحياة اليومية البارزة لأنها
نادرة جداً وهي تسوغ بلا ريب طرائق الرب مع الانسان.
الانسان الشرير قد قادته عواطفه المجرمة كي يقتل زوجه.
عاش بالاثم والذنب المتخيل لعدة أشهر، فقط ليقذف آخر
الأمر بشكل مخيف إلى الحفرة التي كان قد أعدها لنفسه.
"الجريمة سوف تتكشف"، وهنا توجد حالة منها. إن قراء
الصحف كانوا في وضع يؤهلهم اتباع كل حركة ليد الرب.
كان الغموض مخيماً، إلا أن الشائعات مستمرة في الجوار،
قام البوليس أخيراً ببدء إجراءاته ثم جاءت إجراءات نبش
الجثة، إجراءات معاينتها، ثم الاستجواب، أدلة الخبراء، ثم
رأي هيئة المحلفين، المحاكمة، ثم الإدانة. ولمرة واحدة قامت
العناية الإلهية بواجبها بشكل واضح وإجمالاً بشكل
مواعظي، كما في الميلودراما. كانت الصحف محقة في
جعل القضية طعام الفكر القياسي طوال الفصل.

لقد كان شعور السيد هوتن عندما استدعي من إيطاليا لأول مرة للمثول أمام العدالة من أجل إعطاء الدليل خلال الاستجواب نوعاً من الشعور بالسخط. كم هو رهيب وفاضح أن يأخذ البوليس مثل هذه الثرثرة التافهة والحقودة محمل الجد؟ عندما ينتهي الاستجواب سوف يقيم إدعاء ضد رئيس قسم الشرطة، وسوف يقاضي المرأة سينس بسبب الافتراء. فُتح الاستجواب؛ الدليل المدهش يكشف عن نفسه. لقد فحص الخبراء الجثة، ووجدوا آثار زرنيخ، كانوا مؤمنين أن السيدة هوتن قد ماتت بسبب الزرنيخ.. التسمم بالزرنيخ.. اميلي ماتت مسمومة بالزرنيخ؟ بعد ذلك علم السيد هوتن مدهوشاً بوجود مضادات حشرات مزرنخة كافية لتسميم جيش في بيوته الزجاجية. أصبح الآن هادئاً فجأة، عندما رأى ذلك: توجد قضية ضده. يراقبها تكبر وتكبر مسحوراً، يراها كأنها نبات استوائي عملاق. كانت تغلفه، تحاصره، لقد ضاع في غابة متشابكة. متى دُسّ السم؟ اتفق الخبراء على أن كمية السم قد شربت قبل ثماني إلى تسع ساعات قبل حدوث الوفاة. حوالي العشاء؟ نعم حوالي العشاء، استدعيت الخادمة كلارا. لقد طلب منها

السيد هوتن، تذكرت، أن تذهب وتبحث عن الدواء، ولقد تطوع السيد هوتن للذهاب بدلاً منها، لقد ذهب وحده. الآنسة سبنس ـ آه، ذكرى العاصفة، الوجه الأبيض، الرعب فيها!ـ أكدت الآنسة سبنس كلام كلارا، ثم أضافت بأن السيد هوتن قد عاد والدواء جاهز مصبوب في كأس خمر، وليس في القنينة.

تلاشى سخط السيد هوتن. لقد كان مرتعباً وخائفاً. وكل ذلك كان خيالياً إذا أخذ على محمل الجد، حتى لو كان هذا الكابوس حقيقة فإنه مايزال يحدث بالفعل. لقد رآهما مناب يقبلان بعضهما، في بعض الأحيان. لقد أخذهما في جولة يوم موت السيدة هوتن. واستطاع رؤيتهما منعكسين على واقية الريح، وأحياناً بطرف عينه. ثمَّ أجل الاستجواب. في تلك الأمسية قامت دوريس إلى فراشها يؤلمها رأسها. وعندما دخل السيد هوتن إلى غرفتها بعد الغداء وجدها تبكي.

ـ "ماالأمر"؟ جلس على حافة السرير وبدأ يمسد شعرها. لم تجب لمدّةٍ طويلة ثم راح يمسد شعرها بتلقائية، وعلى الأغلب من غير وعي، حتى إنه ينحني أحياناً ويقبل كتفها العاري.

لديه قضاياه الخاصة ليفكر بها كيفما اتفق. ماالذي حدث؟ كيف حدث أن تلك الثرثرة الغبية قد انقلبت جدياً؟ اميلي ماتت مسمومة بالزرنيخ؟ قاطعته دوريس في منتصف أفكاره.

ـ "إنه خطئي، انه خطئي!" فجأة نشجت دوريس.

ـ "ماكان علي أن أحبك، ولا كان علي أن أدعك تحبني. لماذا أتيت إلى الدنيا؟"

لم يقل السيد هوتن أي شيء، نظر فقط إلى الأسفل صامتاً باتجاه الشكل المذلول البائس المستلقي على الفراش.

ـ "إذا فعلوا أي شيء لك فسوف أقتل نفسي".

نهضت، أمسكته لحظة على طول يدها، ونظرت إليه بنوع من العنف كأنها لن تراه ثانية.

ـ "أحبك، أحبك، أحبك،" سحبته إليها، كان خاملاً وسلبياً. عانقته وشدته إليها.

ـ "لم أكن أعلم أنك أحببتني مثل هذا الحب ياتيدي بير"؟!!

فك السيد هوتن معانقتها ومضى. بدا وجهه شديد الاحمرار.

ـ "أنت تفترضين أنني قتلت زوجتي؟ هذا غريب جداً. ماذا تحسبينني؟ بطل سينما؟"

بدأ يفقد أعصابه. كل السخط، كل المخاوف وحيرة اليوم قد تحولت إلى غضب عنيف في وجهها: "كل هذا يشبه غباء ملعوناً. أليس لديك أي تصور عن عقلية الرجل المتحضر؟ هل أبدو مثل رجل يقوم بذبح الناس؟ أظن أنك تتخيلينني مخبولاً إلى هذا الحد في حبك حتى أقدم على اقتراف مثل هذه الحماقة. متى تدركن أيتها النسوة بأن المرء لا يمكن أن ينخبل بالحب؟ كل مايطلبه المرء هو الحياة الهادئة، والتي لن تسمحي لأحد بأن ينعم بها. لا أعرف ماالذي دفعني للزواج منك. كان ذلك حماقة ملعونة أو مزحة فعلية. والآن تقولين بأنني مجرم. لن أستمر بذلك".

مشى السيد هوتن بقوة باتجاه الباب. قال أشياء مروعة، لقد علم أنه قال أشياء كريهة فوجب عليه أن يسحب كلامه بسرعة. لكنه لن يفعل. وأغلق الباب خلفه.

ـ "تيدي بيرا" أدار المقبض ، سقط المزلاج في مكانه. "تيدي بير" كان الصوت الذي وصل إليه عبر الباب منهكاً. هل يجب أن يعود؟ يجب أن يرجع. مسك القبضة، ثم

سحب أصابعه وغادر بسرعة. عندما وصل أسفل الدرج في منتصف الطريق توقف. ربما تحاول فعل شيء سخيف ـ تقذف نفسها من النافذة أو يعلم الله ماذا ستفعل.

أصغى بانتباه، لم يكن هناك أي صوت. لكنه تصورها بدقة، تمشي على رؤوس أصابعها في الغرفة، ترفع الستارة أعلى مايمكن، تميل إلى الخارج إلى الهواء المسائي البارد. كانت تمطر قليلاً. خلف النافذة تقبع المصطبة المرصوفة. كم الارتفاع؟ خمسة وعشرون أم ثلاثون قدماً؟ مرة عندما كان يسير على طول البيكاديللي، قفز كلب من نافذة الدور الثالث للريتز. رآه يسقط، سمع صوت اصطدامه بالرصيف. أيجب عليه العودة؟ من التفاهة أن يفكر بالعودة، لقد كرهها.

جلس في المكتبة لوقت طويل. ماذا حدث؟ ماالذي يحدث؟ أعاد السؤال مرات ومرات في ذهنه فلم يجد أي جواب. افترض أن الكابوس قد تحقق وانتهى بشكل مرعب. الموت كان ينتظره. امتلأت عيناه بالدموع، أراد الحياة بحماس شديد: "فقط لأكون حياً". إميلي البائسة قد رغبت بذلك أيضاً. لقد تذكر: "فقط أن أبقى على قيد الحياة".

مايزال الكثير من الأماكن في هذا العالم لم يُزر، لم يزل الكثير من الناس الغرباء المفرحين غيرمعروفين له، الكثير من النساء اللطيفات لسن كاللواتي رأى قط. إن الثيران الضخمة البيضاء سوف تظل تجر عرباتها على طول الطرق التوسكانية، سيظل السرو متشامخاً مستقيماً كالأعمدة إلى السماء الزرقاء، لكنه لن يكون هناك ليراها. والخمور الجنوبية الطيبة ـ دموع المسيح ودماء يهوذا ـ سيشربها آخرون، وليس هو. سينزل الآخرون إلى الأزقة الضيقة المعتمة بين رفوف الكتب في مكتبة لندن، يتنسمون العطر المغبر للأدب الجيد، محدقين إلى العناوين الغريبة، مكتشفين أسماء غير معروفة، مستكشفين أهداب حقول المعرفة الواسعة. وسيكون هو ملقىً في حفرة في باطن الأرض. ولماذا، لماذا؟ شعر بشكل مضطرب أن نوعاً غريباً من العدالة يجري. في الماضي كان مفعماً بالفرح وأبله وغير مسؤول والآن القدر يأخذ دور الفرح، وعدم المسؤولية، معه. كان ذلك ثأراً "واحدة بواحدة" والرب موجود فوق كل هذا.

شعر وكأن عليه أن يصلي. منذ أربعين سنة خلت اعتاد أن يركع في فراشه كل مساء. هذه الصيغة المسائية لطفولته

جاءت إليه على الأغلب دون جهد عبر حجرة مغلقة طويلة في الذاكرة. "ربي بارك أبي وأمي، وتوم وكاسي والطفل، الآنسة والمربية وكل من أحب واجعلني صبياً صالحاً، آمين". إنهم أموات كلهم الآن ماعدا كاسي. بدا مزاجه يلين ويهدأ، هدوء عظيم نزل على روحه. صعد إلى الدرج كي يطلب سماح دوريس. وجدها مستلقية على السرير من طرفه. على الأرض قربها تقبع عصارة مرهم زرقاء، مشار عليها "غير صالحة للاستعمال"، وتبدو أنها قد شربت نصفها تقريباً.

ـ "أنت لم تحبني"، كان ذلك كل ماقالته عندما فتحت عينيها لتجده منحنياً إليها.

وصل الدكتور ليبارد في الوقت المناسب كي يمنع أية نتائج خطيرة قد تحصل.

ـ "يجب ألا تفعلي ذلك ثانية"، قال هذا حينما لم يكن السيد هوتن في الغرفة.

سألته دوريس بجرأة: "ماالذي يمنعني؟"

نظر إليها الدكتور ليبارد بعينيه الكبيرتين الحزينتين وقال: "لايوجد مايمنعك. فقط نفسك وطفلك. أليس على الأصح

فألاّ سيئاً على طفلك، أن لا تسمحي '، أن يأتي إلى هذا العالم لأنك تريدين الخروج منه؟"

صمتت دوريس لبعض الوقت. همست: "حسناً، لن أفعل".

جلس السيد هوتن قربها بقية الليل. أحس بنفسه الآن أنه مجرم بالفعل. أقنع نفسه لبعض الوقت أنه أحب هذه الطفلة الجديرة بالشفقة. نام على كرسيه واستيقظ متيبساً وبارداً ليجد نفسه ظمآن كما كان بعد كل انفعال. لم يعد سوى جسد حي تعب يتألم. في السادسة نزع ثيابه وذهب لينام ساعتين.

في غضون تلك الأمسية نفسها أعلنت هيئة المحلفين رأيها: "جريمة عن عمد" ويحال السيد هوتن إلى المحاكمة.

لم تكن الآنسة سبنس على مايرام إطلاقاً. لقد وجدت أن ظهورها العلني في قفص الشهود أمر شاق جداً. وعندما انتهى كل شيء انتابها شعور يشبه الانهيار. نامت بشكل سيء وعانت من عسر هضم عصيب. واعتاد الدكتور ليبارد على أن يُطلب كل عدة أيام. تكلمت معه وغالباً ماكان حديثها عن قضية هوتن. كان استياؤها المعنوي دائماً ينفجر بحالة من الغضب. أليس مرعباً التفكير أن المرء قد استضاف مجرماً في منزله؟ أليس من غير الطبيعي أن يكون المرء ولفترة طويلة قد

أخطأ كثيراً حول شخصية رجل ما؟ (لكنها كانت تملك معرفة طفيفة به منذ البداية). ومن ثم الفتاة التي هرب معها ـ من طبقة وضيعة جداً، أفضل قليلاً من عاهرة. وما يثيرها أيضاً بأن السيدة هوتن الثانية تنتظر مولوداً، يولد بعد موت أبيه المجرم والمدان؛ كم كان هذا الأمر فاحشاً ومثيراً للاشمئزاز.

أجابها الدكتور ليبارد بلطف وبشكل مبهم، وطلب منها استعمال وصفة.

في أحد الصباحات قاطعها في منتصف خطبتها المسهبة العنيفة الاعتيادية.

ـ "بالمناسبة" قالها بصوته الناعم الحزين. "إنني أعتقد بأنك حقاً من سمم السيدة هوتن".

حدقت الآنسة سبنس إليه لبضع ثوان بعينين هائلتين، ثم قالت بهدوء: "نعم" ثم بدأت بالبكاء.

ـ "بالقهوة على ماأعتقد". بدت منكسة رأسها موافقة.

تناول الدكتور ليبارد قلم الحبر، وبقلمه الناعم والدقيق كتب وصفة، كانت عبارة عن عقار مُنوِّم.

* * *

تمت

"...أثارت نظارة جانيت سبنس في نفسه فضولاً لاينضُب. لم يكن رومانسياً بما فيه الكفاية ليتخيل بأن كل وجه يخفي أسارير داخلية من الجمال أو الغرابة، حيث إن لغو كل امرأة يشبه بخاراً معلقاً فوق خلجان غامضة.

زوجته مثلاً، ودوريس! لم تكونا أكثر مما تبديان. أما جانيت سبنس فالأمر مختلف نوعاً ما. فهنا يمكن أن يتأكد من وجود نوع من الوجوه الغريبة خلف ابتسامة الجيوكندا والحواجب الرومانية. السؤال الوحيد كان: "ماذا كان ذلك بالضبط؟" هذا مالم يستطع السيد هوتن أن يكتشفه أبداً..."